

## ما أحبها من نقلة !

للأستاذ محمود الخفيف

أحبب إلى نفسي بهذه النقلة إلى تاريخ أمريكا في سيرة زعيمها العظيم «أبراهام لنكولن» ، فإنه لمن أعظم ما يسر القراء لاربيب حديث صاحب المبعريات عن أشبه المبعريين في الغرب بابن الخطاب وما أولى لنكولن بنفسه مما يكتب المقاد ؛ ولو تفضل كاتبنا الكبير فمقد فصلاً أو أكثر من فصل ، فوازن بين لنكولن وعمر ، وهو خير من يفعل ذلك ، لمددت هذا من أفضل ما بلنت بكتابي من خير ...

وبعد ، فأرجو من أستاذنا الجليل أن يصدقني أن عنابي بتاريخ لنكولن هي التي حفزني إلى كتابة هذا الفصل والذي سبقه ، إذ لا زلت من بعض الملاحظات التي أيداهها الكاتب الكبير غير مطمئن النفس ، وما كان ذلك دفاعاً عن كتابي بقدر

في كورفو ، أيام الكرنفال . . وتأملت - في ألم سير - اليون الشاسع بين ما حدث هنا وما حدث هناك .

بعد أن غاب العلم المصري عن عيني وانقطع صوت البوق عن أذن . . واصلت السير ، وأنا أقول في نفسي :

إن الوقوف لتحية العلم - بالصورة التي شرحها آنفاً - قد يبدو للمرء - في الوهلة الأولى - كظهور من المظاهر المادية التي لا تستحق الاهتمام . غير أن هذا الوقوف - في حقيقة الأمر - من الأعمال التي تتصل بتربية النفس اتصالاً وثيقاً ؛ فإن هذه الوقفة التي تضطر الإنسان إلى الخروج عن عالمه الخاص ، ولو لمدة قصيرة . . وتحمله على الانقطاع عن السير وراء مصالحه الشخصية ، ولو لتوان مدودة . وتجبره على الاهتمام بالعلم الذي يمثل وطنه وتاريخه ودولته ولو لفترة وجيزة . .

إن هذه الوقفة المادية ، مثل هذه الأجراس المنوية ، لا بد من أن تؤثر في النفس تأثيراً عميقاً ، ولا بد من أن تساعد على إيقاظ الشمر القوي وإشاعته مساعدة كبيرة .

أبو فهد ساطع المصري

ما هو رغبة مني في الاهتمام إلى الصواب .

لا زال تاريخ أسلاف لنكولن سراً في أطوار الزمن ، وأكبر الظن أنه سوف يبقى كذلك ، وماذا عسى تحويه الكتب عن أبيه النجار ، وعن جده لأبيه ، وقد كان كذلك نجاراً بين أحرار الغاية قتله رصاصة أطلقتها عليه أحد الجنود الحمر ؟ وماذا عسى أن يعرف عن أمه وهي ابنة سفيحة لرجل مجهول من أهل الجنوب ؟ ولولا أن تحدث بذلك لنكولن إلى صاحبه هرتدن ما عرف حتى هذا القدر من سيرتها ...

بذلك رددت على ما أخذته على الأستاذ الكبير من خلو كتابي من تعريف كاف بأسلاف لنكولن من جانب أبيه وأمه ؛ وكان ما ذكره الأستاذ عميقاً على ذلك الرد قوله : « وقد اعتقد الأستاذ الخفيف أن البيان الكافي عن أسلاف لنكولن غير ميسور ، لأن الرجل كان كما هو معلوم عصامياً خامل الآباء والأجداد ؛ ولكن الواقع أن الناظر يعرض لنا من أمر آباءه المعروفين ونسبته حله من تاريخهم » .

إذاً فلا سبيل لنا إلى أسلافه ، ويبقى بعد ذلك آباؤه المعروفين وما نعرف إلا آباء وأمه . وقد ماتت أمه وهو في العاشرة من عمره فحرم من تأثيرها في نفسه ، ذلك التأثير الذي أثمرت إليه في كتابي بقولي : « كان الغلام ينتقل ببصره وخياله من أمه إلى أبيه ، وكانت أمه في أقاصيصها جادة ، تحس نفسه الصغيرة شيئاً من الحزن بطوف بنفسها ويتمسك إلى حكاياتها ؛ أما الأب فكان يميل إلى الروح والنكاهة ، ويتدفق إذ يحكي تدفق من لا تنطوي نفسه على شيء مما تنطوي عليه نفس الأم ، وما كان شيء من ذلك ليخفي على فطنة الغلام ، وأحدثت القصص الدينية أثرها في نفس الصبي وظلت عالقة بلبه وخياله ، وجرت في كيانه مجرى الدم في عروقه ، واخترت حافظته ألفاظها بنفسها حتى ليتحرك بها لسانه وإن لم يقصد » .

ولم يكن لأبيه من أثر في نفسه ولا من صفات نستطيع أن نردنا إلى آباءه فنعرف ، ولو بما يقرب من اليقين شيئاً عن أسلافه فنحل اللغز بعض الحل ؛ أما ذلك الذي كانت تنطوي عليه نفس الأم ، فردد في الأكثر إلى أنها كانت تجهل آباها ؛ على أني لم أسه عما قد يكون للوراثة من أثر في حياة لنكولن ، فأوردت

الرجل الذي بات يحزم متاعه بيده آخر ليلة قبل سفره إلى العاصمة ليجلس فوق كرسي وشنطون قد بنى نفسه بنفسه . وإنما انزى اعتماداً على نفسه واضحاً في كل أطوار سيرته حتى في هذا العمل الذي يبدو هيناً في ذاته وهو عظيم في منتهى ، فقد شمر الرئيس ابراهام لنكولن بطلاً حقائبه بيده ويحزم متاعه دون معونة من أهله أو من صحبه ، فما اعتاد الرجل العظيم معونة من أحد !

إني أفهم أن ثأني المصادفة لخامل أو لدعي بشيء من اليسار أو الفوز مرة أو أكثر من مرة ، كما أفهم أن تحول المصادفة بين ذى جدارة وبين ما يريد مرة أو أكثر من مرة ؛ ولكنى لا أستطيع أن أرد ما يبلفه العظيم الحق من مكانة أو ما يصيبه من فوز إلى المصادفة ، وإلا فما معنى عظمته ، وما معنى العظمة الفردية على الإطلاق ؟ إن هذا يقتضيتنا أن ننكر اعتمادنا على الفردى ، أو ما نسميه العظمة الشخصية ، ونجمل تاريخ البشرية سلسلة أو سلاسل من المصادفات لا ندرى كيف تجرى مجراها . إلا إن الرجل العظيم نفسه هو المصادفة ، فما هو إلا أن يتطلب عصره وجوده وينهياً لاستقباله حتى يستلمن السر وتشمل العصر كله ، وتسيطر عليه روح الرجل العظيم ، وهذا وحده الذي يفسر بروزه وسيطرته على غيره من الناس .

وما كان لنكولن بدعاً من العظماء ، فنذ اشتغاله بالسياسة اقترب اسمه بالشبكة الكبرى التي شملت بلاده ، وألوهى مشكلة الرق ، ثم ما زالت آراؤه في هذه الشبكة تتضح وتتسع دائرتها حتى اشتهر أمره . وإن له لقدرة في الخطابة تملكه في أفذاذ هذا الفن من المهويين ؛ واغتدى لنكولن أحد رجال الحزب الجمهورى المدودين ، وكانت القلبة لهذا الحزب لأسباب كثيرة أهمها حسن سياسته في مشكلة الرق ، ولقد اشتغل بالسياسة واهتم بمشكلة الرق غير لنكولن من كبار الجمهوريين ، ومع ذلك أخذ صيته ، وهو الهامى الفقير الذى لا جاء له ينظم يوماً بمد يوم حتى أغرقهم جميعاً ؛ وما المصادفة من أن رق في هذا ، وبهذا وحده أجهت القلوب إلى لنكولن وبخاصة بمد ما كان من جدال طويل على أعين الناس بينه وبين دوغلاس أحد قادة الديمقراطيين ، وإن اتجاه القلوب إليه هو « الترشيح » الذى تحسه الأنفس قبل وقوعه رسمياً ...

فإذا كان هذا جميعاً من المصادفات ، فيجب إذاً أن نتفن على معنى المصادفة ، وإلا هددنا هراوات التاريخ جميعاً مصادفات ،

في صفحة ١٥١ من كتابى ما قصه على صديقه هرنندن إذ قلت : « وإنه ليفضى إلى صاحبه هرنندن ذات يوم بمحدث عن أقاربه وصلته بهم ، ويتطرق الكلام أثناء هذا الحديث إلى منشاء فيكشف لنكولن لصاحبه عن سر يتصل بأمه ، وذلك أنه لا يعرف أجداده لأمه ، فقد كانت أمه التى أحبها والتي يحل ذكراها ابنة رجل مجهول ، وسيظل هذا الرجل مجهولاً أبداً ، وكل ما يستطيع أن يعرفه عنه أنه من أهل الجنوب ، وبيان ذلك أن جدته لأمه كانت تعيش وحى فتاة في ولاية فرجينيا في الجنوب فأصبحت ذات حمل وإن لم تتزوج ، ووجدت نفسها بعد أشهر الحمل تضع أنثى ، وكانت هى وحدها التى تعرف والد هذه الأنثى ، واتيت من أهلها أشد الغضب لزلتها ، ولكنهم احتضنوا بنتها فنشأت بينهم تنتسب إليهم وليست منهم . ذلك هو السر الذى يقضى به لنكولن إلى صاحبه على ما فيه مما يوجب الكتمان ، ويردف ابراهام قائلاً لصاحبه إنه كان ثمة من ميزة فيه لا يوجد مثلاً في أحد من ذوى قرياه ، فردها لاربر إلى أجداده المجهولين من أهل الجنوب » .

\*\*\*

أما عن أثر المصادفة في حياة لنكولن ، فإني أخشى أن يكون الذى يخرج به القارى مما كتبه الأستاذ الكبير في هذا الصدد أن لنكولن مدين للمصادفة بكل شيء ، فقد قال الأستاذ في مقاله الأول : « وقد كان من الجائز جداً ألا يصل إلى رئاسة الجمهورية لأنه لم ينجح قط في انتخاب أو ترشيح إلا كان للمصادفة في اللحظة الأخيرة أكبر الأثر في هذا النجاح » ؛ وقال في مقاله الثانى : « ولم يكن نصيب المصادفات التى كان لها أكبر الأثر في الترشيح بين الأحزاب نفسها وبين جيوش الشمال وجيوش الجنوب أوفى نصيباً من هذه المصادفات التى صعدت بلنكولن إلى رئاسة الجمهورية » .

وأرجو ألا أتقل على أستاذنا العلامة حين أقول له إنى لازلت أخاصمه في هذا ، وإنى لازلت أرد كل ما أصاب لنكولن من فوز إلى شخصيته ، فما أعرف في المصاميين رجلاً مثله اتكأ على نفسه في جميع أطوار حياته ، وما أعرف مثله من كانت الظروف كلها من عدوه . وكيف امرى تصمد المصادفات بنجار ابن نجار إلى رئاسة الجمهورية ، وكان في هذه الجمهورية آلاف النجارين غيره ؟ ذلك ما لا أستطيع أن أحمل خيالى على تصووره ، إن هذا

وجعلنا أعمال بونابرت مثلاً أو سمد زغلول أو غيرها من المصادقات ، وما هي إلا تلك القوة التي يمتاز بها الرجل العظيم ، أو تلك « الروح » التي لا تدرك ولا تنكر .

وهل نمد قضية الرق في ذاتها مصادفة ، واشتغال لنكولن بها مصادفة ؟ وما قيمة هذه المصادفة إن عدناها مصادفة ؟ والمهم هنا هو كيف علا صوت لنكولن فيها على جميع الأصوات ؟ وكيف نفذ إلى القلوب دون غيره ؟ وهل نمد مواهبه وفي مقدمتها الخطابة كذلك من المصادقات ؟ وإذا فإذا يبقى من « الرجل » ؟ ولقد فشل لنكولن في السياسة أكثر من مرة ، فأين كانت المصادفة ؟ هل نمد فشله كذلك مصادفة كما نمد نجاحه لو أنه نجح ؟ ولقد فاز درجلاس بمقعد الشيوخ دونه بمد صراعهما الطويل ، وعاد هو إلى عمله في المحاماة ؟

ودعى لنكولن بعد هذا الفشل إلى نيويورك فخطب الناس هناك فسحرم بيانه بعد أن سخروا من منظره ومن هندامه ومن شعره الأشعث الذي يعلو رأسه الكبير كأنه ألفاف الغابة . وقد قال الصحفي النساب جريبل وهو من خصومه : « ما من رجل استطاع أن يبلغ بخطابه لأول مرة ما بلغه لنكولن من عظيم الأثر في جمهور السامعين في نيويورك » .

ونشرت كبريات الصحف خطابه وبدأ اسمه يظهر بين أسماء المرشحين لرياسة الجمهورية . ولما عقد الجمهوريون مؤتمراً العام في شيكاغو في شهر مايو لاختيار أحدر رجالهم ليرشحوه للرئاسة ، كان سيوارد واثقاً من نفسه قليل الاكتراث بلنكولن ، وقدم زعماء المؤتمر خمسة أسماء غيرها وجرى الاقتراع على دفعات ، وأعلنت نتيجة الدفعة الأولى من الولايات ، فإذا سيوارد يزيد على لنكولن بسبعين صوتاً وصوت ، ثم أعلنت نتيجة الدفعة الثانية فإذا لنكولن لم يبق بينه وبين منافسه القوى إلا ثلاثة أصوات ، ثم تملن نتيجة الدفعة الأخيرة ، فإذا إبراهيم يظفر على صاحبه ببضعة أصوات فحسب . وإذا فالأمر هنا أمر اختيار وتمحيص وليس للمصادفة دخل فيه . وما يقال عن عدم إعداد الأوراق اللازمة للاقتراع ونشاط جريبل وتحويله معظم الندويين عن رأيه فهو من قبيل ما يروى عن المارك الانتخابية مما يشبه القمص بنصد التسلية والتشويق أو بدافع المبالغة ، إذ لا شك أنه مما ينبغي أن يؤخذ في كثير من التحفظ أن تتحول آراء الندويين في فترة قصيرة في أمر عظيم كاختيار رجل للرياسة في غير سبب

من شأنه أن يفضى إلى هذا التحول الخطير . ولقد كان جريبل من أشد خصوم لنكولن طيلة حياته ، وظل على لده حتى بعد أن ظفر لنكولن بالرئاسة . ولم تكن خصومته لسيوارد إلا مفضية إلى نجاح منافسه ، وهذا مما يجعلنا ترتاب فيما نسب إليه يوم ذلك المؤتمر العام . هذا إلى أنه لو فرض وقوعه كما ذكرنا فإنه أقل من أن يحول آراء الندويين بالقدر الذي يؤدي إلى نجاح لنكولن لقد مكن لنكولن لنفسه قبل ترشيحه ، وسبق هذا الترشيح نشاط وتنافس عظيم في القول والكتابة بين أنصار سيوارد وأنصار لنكولن ، وجاء انتصار لنكولن بعد ذلك متفقاً مع مكانته التي ظل عاملاً عليها ، لا طمأناً في الرئاسة ، ولكن استجابة لما كانت تهجس به نفسه .

ومع ذلك كله ، فقد كان من الجائز ألا يظفر لنكولن بالنصر في معركة الرياسة وإن رشحه الجمهوريون ، ولكنه ظفر ونال مائة وثمانين صوتاً من أصوات مندوبي الولايات الذين ينتخبون الرئيس وفق الدستور ، وكان عددهم ثلاثمائة رجل وثلاثة ، وهذا المدد قلما ناله رئيس من قبله .

لقد شق لنكولن طريقه إلى الرياسة في مشقة ، وتحمل من عنت الأيام ومن قسوة الظروف ما يزيد في معنى عصاميته ، وما يجمل من الصعب بل من المستحيل على المرء أن يتصور أن المصادقات هي التي سممت به إلى رياسة الجمهورية ، ولقد ظل يشتغل بالسياسة أكثر من عشرين عاماً حتى نبه اسمه وذهب صيته في طول أميركا وعرضها ، وهو الذي خرج من بين أحراج غابة من غاباتها فقيراً ممدماً علم نفسه بنفسه ، ولم يتسكى منذ كان طفلاً إلا على نفسه ...

وبعد ، فإني أعود فأشكر للأستاذ الجليل ما أبداه من ملاحظات على كتابي كانت سبباً في هذه النقلة المستحبة في تاريخ البلاد الأمريكية ، ولعلنا نظفر منه بأمثالها ، وإني لسميد إذا صدقتى كاتبنا الكبير أني لم أرد بالرد على ملاحظاته القيمة دفاعاً عن كتابي ، وإنما الصواب طلبت ؛ وما أبرئ نفسي من الخطأ ، ولست أرى أن كتاباً يوضع في تاريخ لنكولن وتاريخ الولايات المتحدة في عصره يصدق القائل فيه إذا قال إنه يخلو من ملاحظات جلت أو هانت تلك الملاحظات .